



صمت الشعب السوري خمسين عاماً، فلما نطق أخيراً لم يهمس همساً بالصوت الرَّخْوِ الضعيف، بل زأر زئيراً صاخباً تردد صداه في أنحاء الأرض. كانت الكلمة الأولى التي خرجت من أفواه الأحرار الثائرين كلمةً واحدة قصيرة من أربعة أحرف: "حرية، حرية"، ولكنها كانت في أثرها أثقلَ من الجبال وأقوى من الأعاصير. ثم تبعها على الفور ذلك الهاتف العفوي العبرى الذي حفظه التاريخ: "الشعب السوري لا يُذَلُّ" ، **فكانَ تلَكَ الكلمةُ القصيرةُ وذلِكَ الْهَتَافُ الرَّتَانُ إعلانَ السُّورَيْنَ عَنْ عُودِتِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ، كَانْ إِلَاعَنَ الْوَلَادَةِ الْجَدِيدَةِ بَعْدِ الْمَوْتِ الطَّوِيلِ.**

لن يعرف شعبٌ في الدنيا ما معنى هذا الهاتف وما أثره في قلوب السوريين، لأن أي شعب في الدنيا لم يفقد حريته ولم يفقد كرامته كما فقدها الشعب السوري. حتى الشعب الفلسطيني الذي عاش تحت الاحتلال اليهودي الصهيوني كان أكثر حرية وأوفر كرامة من الشعب السوري الذي عاش تحت الاحتلال البعثي الأسدية الطائفية البغيض.

في أي مكان في الدنيا يمكن أن يُعتَقَلَ المرء وهو بريء، وفي بعض الدول (وربما في كثير منها) يمكن أن يتعرض للظلم والتعذيب، لكنه يستطيع محاموه أن يدافعوا عنه أمام المحاكم، ولو كانت المحاكم تحاكم إلى قانون جائز. على الأقل يعرف أهله أين هو، على الأقل يعرفون أنه حُكِمَ عليه بالسجن عاماً أو ألفَ عام، على الأقل يعرفون أهيّ هو أو ميت، على الأقل يستطيعون أن يزوروه في بعض الأحيان، على الأقل يمكنه هو نفسه أن يسأل فيمَ اعْتُقَلَ وفيمَ حُكِمَ أو سُجِنَ. أما في سوريا فلم يعرف المعتقلُ في أي شيء اعْتُقَلَ، وربما قُتلَ من بعدِ ولن يعرف في أي شيء قُتلَ. أما أهله فلن يعرفوا أبداً أين اختفى،

ولو سأله عنده فليس بعيداً أن يلحوظوا به، لأن السؤال عن المعتقل -في قانون دولة الأسد- جريمة أكبر من جريمة المعتقل التي لا يعرفها أحد.

\* \* \*

مضت على سوريا خمسة عقود مظلمة كئيبة والناس فيها كلهم عبيد، ليسوا أكثر من دجاج في قفص!

كان لواحد من أصدقائي منذ سنوات متجر لبيع الدجاج الحي، فإذا زرته وجدت عنده أقفاصاً فيها دجاج، يفتح أحدها ويمد يده فيقبض على دجاجة ويسحبها خارجاً للذبح، ولم أسمع يوماً أي دجاجة من الدجاجات في القفص تحتاج بكلمة اعتراض. الشعب السوري عاش في قفص كهذا القفص خمسين عاماً. كان "الموطن السوري" تحت حكم الأسد أهون وأقل قيمة من الدجاج في الأقفاص! يستطيع عناصر الأمن أن يقتحموا بيته في أي وقت من ليل أو نهار، ويجرؤه أو يجرؤ ولده أو زوجته إلى حيث يريدون. لا يحق له أن يعتراض ولا يحق لأحد من أهل بيته أن يسأل، ولن يعرف من بقي في البيت أبداً إلى أين ذهب المعتقلون.

زرت صاحبي ذاك في متجره ذات يوم، فوصلت العربة التي تنقل الدجاج من المزرعة وقد تكدرت فيها الأقفاص وتكوّمت الدجاجات في الأقفاص أكوااماً، فلما جاء سائق العربة يسلمه "البضاعة" راح يمد يده إلى الأقفاص ويفحص الدجاجات، فكلما وجد واحدة منها ميّة سحبها فألقاها في حاوية القمامات، ثم عَدَ الباقيات وأخذ توقيعاً بالاستلام. وسألته عن السر، فقال إن حشر الدجاجات في الأقفاص ورحلتها الطويلة من المزارع إلى المتاجر ينذر أن تمرّ بسلام، ولا بد أن تتفق بعض الدجاجات على الطريق بسبب سوء ظروف النقل والتخزين.

أليس كذلك عاملت أجهزة الأمن شعب سوريا كله طوال عقود؟ بل، لقد خضع شعب كامل للمعاملة ذاتها؛ صنعت أجهزة الأمن مع عشرين مليون سوري ما يصنعه بائع الدجاج مع دجاجاته، فإذا صار المرء في قبضتها لم يبقَ فرقاً بين موته وحياته، ولا يسأل أحداً كيف مات من مات من المعتقلين وكيف عاش من عاش؟

\* \* \*

الله يقول عن نفسه: "لا يُسأَل عما يفعل"، جَلَ جَلَلُ الله، وأجهزة الأمن في بلادنا أرادت أن تشارك الله في صفاته فصارت لا تُسأل عما تفعل، فالناس ملك لها تتصرف فيهم كما تشاء؛ تنتزع ممّن تشاء منهم حرّيّته ولا يسألها أحد، وكرامتها فلا يحاسبها أحد، وحياته فلا يعاقبها أحد. الكبار والصغار والرجال والنساء، والعرب والكرد والمسلمون والمسيحيون، كل واحد حمل هويةً سورياً فكأنما حمل صك عبودية، الكل مماليك وأجهزة الأمن هم المالكون، ويا ليتهم يتصرفون في مماليكهم كما يتصرف راعي البهائم في البهائم، بل هم أذل وأهون، وهم أدنى قيمةً من البهائم والحيوانات.

ثم سأله الناسُ الشعب السوري فيم ثار؟ ثم هم يستكثرون على الشعب السوري أن يضحي بثلاثة ملايين شهيد ليقتدي نفسه من العبودية؟ لو علموا ما يعلم أهل سوريا لرضاوا بأن يضحوا بثلاثة ملايين شهيد ليتخلصوا من حياة العبيد!

المصادر: